محطـات تاريخـية

التشيّع والتصوّف: تفكيكُ دعوى الارتباط وكشفُ تاريخ الخصومة

د. محمد أبو عمر

لقد وقع كثير من الباحثين في خطأ فادح حين اعتقدوا أن للشيعة الاثني عشرية علاقة وطيدة بالصوفية، أو أن التصوف جزء من التشيع.

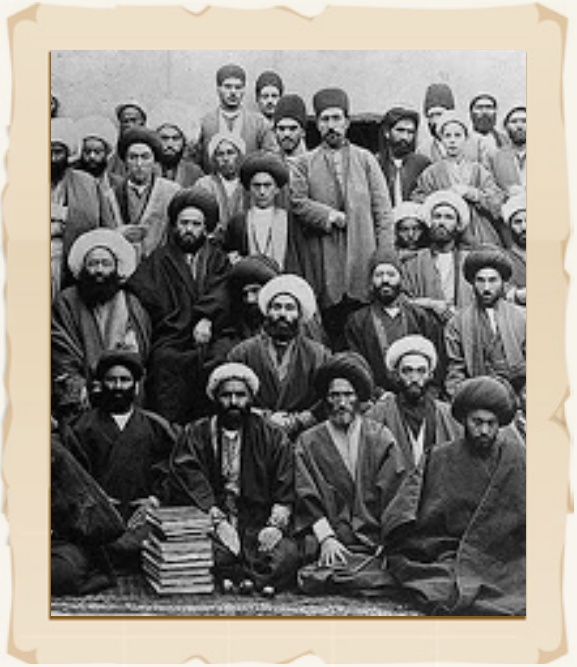

الحقيقة التاريخية تكشف أن الشيعة في أغلب مراحلهم رفضوا التصوف رفضًا قاطعًا، لما فيه - من وجهة نظرهم - انحراف عن منهج الأئمة، وتعبّد بطقوس لم يرد بها نص شرعي، وهذا الخطأ في الربط بين الشيعة والصوفية أدى إلى خلط المفاهيم، وأتاح للبعض اختلاق القول: بتأثر الشيعة بالصوفية، بينما الواقع يؤكد أن أي ظهور مؤقت للتصوف بين بعض الشيعة وتحديداً - الأصوليين منهم - لم يكن إلا نتيجة استيراد الفلسفة والتصوف الفلسفي، قبل أن يُرفض مرة أخرى (المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، ص179).

نشأة الصوفية ورفض الشيعة لها وظهور الروايات التي تحذر منهم بل وتكفرهم

ظهر التصوف في المجتمع الإسلامي مع أوائل القرن الثالث والرابع الهجري، وكان في بداياته مرتبطًا بالسلوك والتقوى والمجاهدة الذاتية، دون أي ارتباط بالتصوف الفلسفي أو علوم الباطن، التي ظهرت لاحقًا.

- الشيعة الاثني عشرية رفضت التصوف منذ البداية، معتبرةً أن التوجه نحو (الكرامات والمقامات والاتحاد) منافٍ لعقيدة الإمامة والعصمة، ومخالف لأحكام الشريعة (الصلة بين التصوف والتشيع: د/كامل مصطفى الشيبي (67/2).

- الروايات الاثني عشرية حذرت بشكل صريح من الصوفية ومن أي ممالأة لهم، عن أبي ذَرٍّ عَنِ النَّبيّ أنَّهُ قالَ: "يا أبا ذَر، يَكونُ في آخرِ الزَّمانِ قَومٌ يَلبسونَ الصّوفَ في صَيفِهِم وشِتائِهِم، يَرَونَ أنَّ لَهُمُ الفَضْل بذلكَ على غَيرِهِم، أولئِكَ يَلعَنُهُم مَلائِكَةُ السَّماواتِ والأرضِ"(الأماليُّ: للطّوسي، ص539).

- الإمام الرضا - عليه السلام- أكد على عداء الصوفية للأئمة، ورُوِيَ عنه أنَّهُ قالَ: "قالَ رَجُلٌ مِنْ أصحابِنا للصّادقِ جَعفرِ بنِ مُحَمَّدٍ عَليهِما السَّلامُ: قَدْ ظَهَرَ في هذا الزَّمانِ قَومٌ يُقالُ لَهُم: الصّوفيَّةُ، فما تقولُ فيهِم؟ قالَ: إنَّهُم أعداؤنا، فَمَنْ مالَ فيهِم فهُوَ مِنْهُم، ويُحشَرُ مَعَهُم، وسَيكونُ أقوامٌ يَدَّعونَ حُبَّنا، ويَميلونَ إليهِم، ويَتَشَبَّهونَ بِهِم، ويُلَقِّبونَ أنفُسَهُم، ويُأوِّلونَ أقوالَهُم، ألا فَمَنْ مالَ إليهِمْ فليسَ مِنّا، وأنا مِنهُم بُراءٌ، ومَنْ أنكَرَهُم وَرَدّ عَليهِم، كانَ كَمَنْ جاهدَ الكافِرَ بَينَ يَدَي رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ (مستدرَك الوَسائل: الحر العاملي(12 /323))

ويمكن القول: إن تكفير الشيعة للصوفية أمر ليس بمستغرب عليهم، فقد كفروا عموم المسلمين لإنكارهم الولاية المزعومة، فالروايات عندهم جاهزة لتكفير كل من أنكر إمامتهم وولايتهم من عموم الأمة، فلم يسلم أحد منهم.

ردود أفعال الصوفية على النقد الشيعي:

وكانت ردة الفعل لا تقل شدة من جانب الصوفية، ففي نفس الوقت قابلهم الصوفية بنفس هذا الموقف المتشدد؛ فذكر عبد الله الهروي(ت 481هـ) الصوفي أنه: من بين عدد ألف ومائتي صوفي عَرفهم؛ لم يزد عدد العلويين من أصحاب الكرامات منهم على اثنين فقط، وذكر - أيضاً - أن أبا زيد - وكان من شيوخ الصوفية المعاصرين له في (مَرْو) - كان يقول لمريده العلوي: "لم تشم رائحة التصوف حتى تخرج من علويتك كلية"(الصلة بين التصوف والتشيع: للشيبي (65-64/2).

هجوم علماء الشيعة على التصوف والصوفية

محمد باقر المجلسي (1111 هـ): أبرز من شن حملة قوية ضد الصوفية والعرفان، ووصف عبادتهم بالبدع والاختراعات، ومنع تلاميذه من إتمام كتب تتضمن مقامات صوفية مثل كتاب "مقامات النجاة في شرح الأسماء الحسنى" لنعمة الله الجزائري (الذريعة: أغابزرك الطهراني، (13/90).

نعمة الله الجزائري: رأى أن التصوف أصلًا عند الزنادقة وأهل الضلال، وانتقل لاحقًا إلى متصوفة أهل السنة، مع نقده للغزالي وابن عربي (الجزائري، الأنوار النعمانية، 2 /193).

الحر العاملي: ألّف "الرسالة الاثني عشرية في الرد على الصوفية" التي تضمنت اثني عشر بابًا تفصّل ردوده على التصوف ومبادئه.

مؤلفات علماء الشيعة في الرد على التصوف والصوفية والعرفان

1. محمد باقر المجلسي: (كتاب الاعتقادات) وانتقد فيه عدم التزوج والرهبانية والذكر الخفي ..وغير ذلك
2. الحر العاملي:"الرسالة الاثني عشرية في الرد على الصوفية" تناول فيه الرد على جميع مسالك الصوفية.
3. علي النمازي الشاهروردي"تاريخ الفلسفة والتصوف" زعم فيه أنه كشف الأسرار غير المعلنة للصوفية، وأوضح بطلان جميع ادعاءاتهم وممارساتهم
4. صدر الدين صدر المتألهين الشيرازي" كسر الأصنام الجاهلية في كفر جماعة الصوفية"
5. تلميذه الفيض الكاشاني الذي كتب ذماً في الصوفيين في كتابه "الكلمات الطريفة" وكذلك في كتابه "بشارة الشيعة"
6. الرد على الصوفية للمحقق القمي
7. الرد على الصوفية للمازندراني
8. الرد على الصوفية للسيد أعظم البنكوري
9. الرد على الصوفية للأردبيلي
10. الرد على الصوفية فارسي لبعض العلماء

وكتب كثيره جدا تحمل هذا المسمى بالرد على الصوفيه تصل إلى 20 كتابا

أسباب رفض الصوفية عند الشيعة

السبب الأول: أن حركة التصوف تتطلع إلى تكوين مجتمع جديد ونظام له طابع خاص ومتميز في الحياة العلمية؛ مما أدى إلى عدم انضمام الشيعة الاثني عشرية إلى مدارس التصوف(الصلة بين التصوف والتشيع: للشيبي63/2).

السبب الثاني: وهو الأهم: سخط الاثني عشرية على الصوفيّة؛ لقولهم: بالولاية، وبالقطب الغوث، مما يعطل علم الإمامة عندهم، فضلًا عن أن تجمع المريدين حول مشايخ الصوفية؛ حرم الشيعة من رصيد بشري هائل كان من الممكن استمالته إلى التشيع وتجميعه حول الإمام الشيعي(الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري: د/ محمد بركات البيلي، ص46).

السبب الثالث: أن جموع الصوفية بطرقها - كما مر -؛ لا تقبل قولهم في الإمامة، ولا في القرآن الكريم، من حيث ادعائهم الباطل بتحريفه أو نقص آياته، فضلًا عن البراءة من الشيخين أبي بكر وعمر، أو الطعن أو السب واللعن لهما، بل تترضى عن كل أصحاب النبي e الذي مات وهو عنهم راض.

السبب الرابع: أن الإعراض عن المادة كلها وعن الأمجاد والطموح من سمات التصوف؛ فكان الصوفية بذلك يتباينون تباينًا كبيرًا مع الفكر الاثني عشري القائم على الاستعداد للثورة باستمرار على مغتصبي الولاية من الأئمة؛ فكان النفور بين الجانبين لهذا السبب بالذات.

تأثير التصوف الفلسفي والعرفان على الشيعة

- مع سقوط بغداد على يد التتار (656 هـ / 1258 م)، بدأ بعض فقهاء الشيعة بالانفتاح على التصوف الفلسفي، على يد نصير الدين الطوسي، مؤسس مرحلة العرفان الشيعي (روضات الجنات: الخوانساري (312/6-313))

- تلاميذ الطوسي مثل كمال الدين ميثم البحراني أدخلوا التصوف الفلسفي في مدارس الشيعة مع المحافظة على أصول الإمامة (الشيبي (91/2).
- المحاولات لم تدم طويلًا، إذ تم رفض هذه الصبغة الصوفية بعد القرن العاشر الهجري، وظهرت موجة من العرفان النظري المستقل عن طرق الصوفية .

محاولات الصبغ الشيعي للتصوف

- بعض الشخصيات مثل الآملي حاولت تقريب التصوف للسنيين مع صبغها بعقائد الشيعة في الإمامة، كما في كتابه "جامع الأسرار ومنبع الأنوار"
- ظهور طرق شيعية صوفية مثل الحروفية والنوربخشية والمشعشعية، مع دمج مفاهيم الإمامة والعصمة فيها.
- رغم هذه المحاولات، لم تنجح في تحقيق قبول عام لدى الصوفية، أو لدى الأغلبية الشيعية التقليدية.

خاتمة: الرفض النهائي وعودة الاستقلال العرفاني

لقد بينت الوقائع أن أي ظهور للتصوف عند بعض الأصوليين الشيعة كان مؤقتًا ومحدودًا، وارتبط بفترة معينة من الانفتاح على الفلسفة والتصوف الفلسفي. ومع تقدم الزمن، ظهر رفض كامل للصوفية، وعاد العرفان ليكون مستقلاً عن أي سلسلة صوفية، محافظًا على خصوصية الفكر الشيعي، كما في أعمال الشيرازي والفيض الكاشاني وحتى روح الله الخميني.

إن هذا التاريخ الطويل يؤكد أن الصوفية لم تكن، ولن تكون، جزءًا أصيلاً من تراث الشيعة الإثني عشرية، وأن أي مزج سابق كان نتيجة لحركة فلسفية مؤقتة، سرعان ما تم رفضها وإعادة تصويبها وفق المبادئ الأصلية للإمامة والعصمة.